

الإستفهام التقريريّ عند علماء الإعجاز القرآني

الدكتورة: سهام مادن

-جامعة الجزائر- الجزائر

الاستفهام التقريريّ عند علماء الإعجاز القرآني:

إذا كان الاستفهام التقريريّ نمطا لغويّا حظي بوفرة كبيرة من حيث وروده في أيّ الذّكر الحكيم، إلّا أنّنا نجد من تطرّق إليه من حيث إبراز خصائصه التركيبية والجمالية في النصّ القرآني، وربما الأمر راجع إلى اشتغال علماء الإعجاز بالتقعيد لنظرياتهم ووضع أسسها وفقًا للمعتقدات السائدة في تلك الفترة ممّا ألهاهم عن الغوص في دقائق المعاني القرآنيّة.

وسنحاول التطرّق لبعض اللطائف والإشارات التي يتمتّع بها أسلوب التقرير في القرآن الكريم من خلال أقوال بعض علماء الإعجاز القرآنيّ، وذلك بتناول العناصر الآتية:

1-تحديد مفهوم الاستفهام التقريريّ لغة واصطلاحاً:

2-أقسامه.

-أدواته.

4-آراء بعض علماء الإعجاز القرآني.

1-عبد القاهر الجرجاني.

2-أبو القاسم الزمخشري.

3-أبو السّعود.

4-محمد الطاهر بن عاشور.

انفردت لغة الضاد عن باقي اللغات السامية بأسلوب الاستفهام التقريري، وكثّر وروده في القرآن الكريم على اختلاف صوره لما له من مقاصد بلاغية، وإقناعية، وإعجازية.

1-تحديد مفهوم الاستفهام التقريري:

مفهوم التقرير لغة: قال ابن فارس: "قَرَّ: القاف، والرّاء، أصلان صحيحان، يدلّ أحدهما على برد، والآخر على تمكّن، فالأوّل: القَرَو هو البرد، ويم قارّ، وقَرّ...

الدكتورة: سهام مادن

والأصل الآخر: التَّمَكَّن، يقال: قرَّ، واستقرَّ، والقرَّ: مركب من مراكب النساء... ومن الباب عندنا _ وهو قياس صحيح _ الإقرار: صدَّ الجحود، وذلك أنَّه إذا قرَّ بحق فقد أقرَّه قراره، وقال قوم في الدَّعاء: أقرَّ الله عينه، أي: أعطاه حتَّى _ تقرَّ عينه، فلا تطمح إلى من هو فوقه، ويوم القرَّ: يوم يستقرَّ النَّاسُ بمنى، وذلك غداة يوم النحر⁽¹⁾.

مفهوم التقرير اصطلاحاً: قال الزركشي: "هو حمل المخاطب على الإقرار، والإعتراف بأمر قد استقرَّ عنده"⁽²⁾.

وإذا أسقطنا المعنى اللغوي للتقرير على معناه في اصطلاح البلاغيين، وجدناه ينطبق تمام المطابقة عليه، فعبرة "القرة قرة الحى حين يجد لها فترة وتكسيرا" فالمحموم في هذه الحالة يشعر بنوع من الأريحية، كالتى تخالط والنفس إذا حملت على الإقرار بأسلوب التقرير.

وهو الشعور في عبارتي: "والأصل الآخر: التَّمَكَّن و"القرقر: القاع الأملس، ومنه ما يلتزق بأسفل القدر كأنه شيء استقر في القدر"، فأسلوب التقرير يتمكَّن من النفس الإنسانية، ويلتزم في صميمها، كأنه شيء استقرَّ فيها، حتَّى لا تجد بداً من الإعتراف بالحقيقة المقدرة، اللهمَّ إلا أن تجدد هذه الحقيقة، والجحود خلق ذميم اعتنقه المغضوب عليهم من يوم: "لَئِنْ اتَّخَذْتَ إِلَهاً غَيْرِي لِأَجْعَلَكَ مِنَ الْمُسْجُونِينَ". "الشعراء 29" ومن يوم: "لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا". "مريم 46"، ومن هنا يظهر لنا أنَّ كلَّ ما ورد في القرآن من تقرير، أقرَّ به كلَّ الخلق، مؤمنهم، وكافرهم حتَّى وإن جحد الكفار الحقَّ بأنفسهم، فقد استيقنته أنفاسهم، قال الله سبحانه "وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْماً وَعُلُوًّا" النمل، 14، فأخبر سبحانه أنَّ الدافع الذي جعل هؤلاء يجحدون كلمة الحق، إنّما هو الظلم، والظغيان والتكبر، وحبَّ الإستعلاء ليس إلا.

ومن أمثلة التقرير، قول الله سبحانه، وتعالى: "أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ" الشرح، 01، وقول سبحانه: "أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيماً فَآوَى" الضحى، 06. وقوله تعالى: "أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ" التين 08. "ويجب أن يلي الأداة الشيء الذي تقرّر بها، فتقول في تقرير الفعل: "أضربت زيداً" والفاعل نحو "أأنت ضربت"، أو المفعول نحو: "أزيدا ضربت"، كما يجب في الاستفهام الحقيقي⁽³⁾، ففي الأوّل كان السؤال عن الفعل والشك فيه، أمّا في الثاني الشك في الفعل، وإنّما في الفاعل من هو، وهكذا.

الإستفهام التقريري عند علماء الإعجاز القرآني

2. أقسامه: يأتي أسلوب الإستفهام التقريري، بمعان عدة منها⁽⁴⁾ :

أ- بمعنى التحقيق والتثبيت: وهو كثير في التثليل، يقول العبد الصالح، الخضر عليه السلام، لمسى عليه السلام، "أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا" الكهف 75، فهو تحقيق وتثبيت لما قاله لموسى من قبل، وقد أخبرنا القرآن الكريم، أنّ موسى عليه السلام، لما طلب من الخضر عليه السلام، أن يتبعه بين له أنه لا يستطيع، قال تعالى: "فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَني مِمَّا عَلَّمْتَ رُشْدًا قَالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا" الكهف 65-68، فقول العبد الصالح إذن: "قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا" الكهف 75، معناه: إنني قد قلت ذلك، فهو تثبيت للقول، وتحقيق له، وأومنه قوله سبحانه في شأن إخوة يوسف عليه السلام: "فَلَمَّا اسْتِئْذِنُوا مِنْهُ خَالَصُوا نَجِيًّا قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ" يوسف 80، وهم لا ينكرون ذلك، فهو يريد تثبيت أخذ الميثاق، وتحقيقه، والمعنى: قد علمتم أنّ أباكم قد أخذ عليكم موثقا من الله، ومن ذلك قول فرعون لموسى عليه السلام: " قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ" الشعراء 18، فإنّ موسى لا ينكر ذلك وإنّما يريد فرعون تثبيت هذا الأمر، أي: قد ربّيناك فينا وليداً، وهذا القسم من الاستفهام التقريري، هو إنشاء من حيث اللفظ، خبرٌ من حيث المعنى، إنشاء من حيث اللفظ لأنّ صيغة الاستفهام من أقسام الإنشاء-كما هو معلوم-، خبر من حيث المعنى، لأنّ معناه-كما تقرّر-تثبيت الخبر وتحقيقه، فمعنى " أَلَمْ نُرَبِّكَ" الشعراء 18، قد ربّيناك، ومعنى " أَلَمْ تَعْلَمُوا" يوسف 80: قد علمتم، ومعنى: " أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ" الشرح 01، قد شرحناه وهذا القسم كذلك لا يطلب المستفهم له جواباً، لأنّه إنّما يريد تحقيق الخبر فقط، فهو لا يحتاج إلى جوابٍ من المخاطب.

ب- طلب إقرار المخاطب بما يريد المتكلّم، وقد ورد بكثرة في كتاب الله أيضاً، قال تعالى: " أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ" الأعراف 172، وقال سبحانه: " أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ" الزمر: 26، وقال عزّ من قائل: " أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ" يس 81، ويختلف هذا القسم عن سابقه بما يلي:

- هو إنشاء لفظاً ومعنى، فقولُه سبحانه: " أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ" الأعراف 172، إنشاء من حيث اللفظ لأنّه على صورة الاستفهام، والاستفهام من أقسام الإنشاء، وهو

الدكتورة: سهام مادن

إنشاء كذلك من حيث المعنى، لأنَّ المقصد الأسى للآية الكريمة حَمَلُ النسا على أن يُقَرَّوا بربوبية الله جلَّ وعلا وإلهيته، وهكذا في بقية الآيات الأخرى.

-إنَّ هذا القسم يحتاج إلى جواب من المخاطب، ألا ترى أنَّه قد جاء في كثير من آيات الذكر الحكيم جوابٌ عن هذا النوع من الاستفهام، مثل قوله سبحانه: "أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى" الأعراف 172، وقوله تعالى: "أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَى وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ" يس 81، وفي الأثر أن النبي p كان إذا قرأ سورة التين، فبلغ قوله سبحانه: "أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمَ الْحَاكِمِينَ" التين 08، قال بلى وأنا على ذلك من الشاهدين (5).

3-أدواته: اختصت الهمزة بالتقرير دون غيرها من الأدوات، لأصالتها ولأنَّها أمَّ الباب، ولا خلاف بين البلاغيين في أنَّ الهمزة ترد للتقرير، بل إنَّ منهم من أفرد الهمزة بخروجها عن الاستفهام، إلى معانٍ أخرى تُفهم من السياق، كما فعل ابن هشام في كتابه المغني (6) إنَّ أهل الفنَّ اختلفوا في إمكانية ورود التقرير بغير الهمزة، فذهب ابن جني إلى أنَّه لا يُستعمل التقرير بهل، ويستعمل بغيرها من أدوات الاستفهام، وقال الكندي "ذهب كثير من العلماء في قوله: "هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ" الشعراء 72-73، إلى أنَّ "هل" تشارك الهمزة في معنى التقرير والتوبيخ...ونقل أبو حيان عن سيبويه أنَّ استفهام التقرير لا يكون بهل، إنَّما يستعمل في الهمزة، ثمَّ نقل عن بعضهم أنَّ: "هل" تأتي تقريراً كما في قوله سبحانه: "هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِذِي حِجْرٍ" الفجر 05 (7).

وإن كان التقرير يقع بالحرف "هل"، فإنَّه قليل وروده في كلام الله سبحانه، مقارنة مع الهمزة، فقد كان لها حصّة في ورودها لإفادة معنى التقرير، مع اختلاف في صورها (8)، فتد مصحوبة بـ"لم"، وذلك في مثل قوله تعالى: "أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمَ الْحَاكِمِينَ" الشرح 01، وتأتي مع "ليس" نحو قوله سبحانه:

"أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمَ الْحَاكِمِينَ" التين 08، كما ترد من غير نفي، كقوله تعالى: "أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ" المائدة 116.

والمدونة التي بين أيدينا حسب المصادر التي رجعنا إليها في تنقيحها إنَّما التقرير ورد فيها بالهمزة في غالبيتها، باستثناء بعض الآيات التي أفادت التقرير مع الحرف "هل"، لذلك كان التقرير بالهمزة أبلغ لما لصوت الهمزة من حدة في أذن السامع.

الاستفهام التقريبي عند علماء الإعجاز القرآني

4-آراء بعض علماء الإعجاز القرآني:

نستله بشيخ البلاغيين:

1-عبد القاهر الجرجاني:

تعرض الإمام رحمه الله لهذا الموضوع في ثنايا حديثه عن مواضع التقديم والتأخير، ولقد كانت نظرية اللفظ والمعنى الشغل الشاغل لشيخ البلاغيين مما حجبته عن اكتشاف مواضع الجمال في الجملة الاستفهامية التقريرية، والغوص في جمالياتها البلاغية والأسلوبية.

يقول في سياق حديثه عن مواضع التقديم والتأخير⁽⁹⁾: "ومن أبين شيء في ذلك الاستفهام بالهمزة، فإن موضع الكلام على أنك إذا قلت: أفعلت؟ فبدأت الفعل، كان الشك في الفعل نفسه، وكان غرضك من استفهامك، أن تعلم وجوده، وإذا قلت: أنت فعلت؟ فبدأت بالاسم كان الشك في الفاعل من هو، وكان التردد فيه، ومثال ذلك أنك تقول: أبنيت الدار التي كنت على أن تبنيها؟ أقلت الشعر الذي كان في نفسك أن تقوله؟ أفرغت من الكتاب الذي كنت تكتبه؟ تبدأ في هذا ونحوه بالفعل، لأن السؤال عن الفعل نفسه والشك فيه، لأنك في جميع ذلك متردد في وجود الفعل وانتفائه، مجوز أن يكون قد كان أو يكون لم يكن، وتقول أنت بنيت هذه الدار؟ أنت قلت هذا الشعر؟ أنت كتبت هذا الكتاب؟ فتبدأ في ذلك كله بالاسم، ذلك لأنك لم تشك في الفعل أنه كان، كيف؟ وقد أشرت إلى الدار مبنية، والشعر مقول والكتاب مكتوباً؛ وإنما شككت في الفاعل من هو، فهذا من الفرق لا يدفعه دافع، ولا يشك فيه شاك، ولا يخفى فساد أحدهما في موضع الآخر، فلو قلت: أنت بنيت الدار التي كنت على أن تبنيها؟ أنت قلت الشعر الذي كان في نفسك أن تقوله؟ أنت فرغت من الكتاب الذي كنت تكتبه؟ خرجت من كلام الناس، وكذلك لو قلت: أبنيت هذه الدار؟ أقلت هذا الشعر؟ أكتبت هذا الكتاب؟ قلت ما ليس بقول، ذاك لفساد أن تقول في الشيء المشاهد الذي هو نصب عينيك: أموجود أم لا؟.

ومما يُعلم به ضرورة أنه لا تكون البداية بالفعل كالبدء بالاسم، إنك تقول: أقلت شعراً قط؟ رأيت اليوم إنساناً؟ فيكون كلاماً مستقيماً، ولو قلت: أنت قلت شعراً قط؟ أنت رأيت إنساناً؟ أخطأت، وذاك أنه لا معنى للسؤال عن الفاعل من هو في مثل هذا، لأن ذلك إنما يتصور إذا كانت الإشارة إلى فعلٍ مخصوصٍ، نحو أن تقول: من قال هذا الشعر، ومن بنى هذه الدار؟ ومن أتاك اليوم؟ ومن أذن لك في الذي فعلت؟ وما

الدكتورة: سهام مادن

أشبه ذلك مما يمكن أن ينصّ فيه على معيّن، فأما قيل شعراً على الجملة، ورؤية إنسان على الإطلاق فمحال ذلك فيه، لأنه ليس مما يختصّ بهذا دون ذاك حتّى يُسأل عن عين فاعله، ولو كان تقديم الاسم لا يوجب ما ذكرنا من أن يكون السؤال عن الفاعل من هو وكان يصحّ أن يكون سؤالاً عن الفعل أكان أم لم يكن لكان ينبغي أن يستقيم ذلك.

واعلم أنّ هذا الذي ذكرت لك في الهمزة هي للاستفهام قائم فيها إذا هي كانت للتقرير، فإذا قلت: أنت فعلت ذاك، كان غرضك أن تقرّره بأنّه الفاعل، يُبين ذلك قوله تعالى حكاية عن قول نمرود: "أَأَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِالْهَيْتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ" الأنبياء 62، لا شبهة في أنّهم لم يقولوا ذلك له عليه السلام وهم يريدون أن يقرّ لهم بأنّ كسر الأصنام قد كان، ولكن أن يقرّ بأنّه منه كان، وقد أشاروا له إلى الفعل في قولهم: "أَأَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا"، وقال هو عليه السلام في الجواب: "بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ" الأنبياء 63، ولو كان التقرير بالفعل لكان الجواب: فعلتُ أو لم أفعل، فإن قلت: أو ليس إذا قال: "أفعلت؟" فهو يريد أيضاً أن يقرّره بأنّ الفعل كان منه، لا بأنّه كان على الجملة، فأبى فرق بين الحاليين؟، فإنّه إذا قال: أفعلت؟ فهو يقرّره بالفعل من غير أن يردّده بينه وبين غيره، وكان كلامه كلاماً من يوهّم أنّه لا يدري أنّ ذلك الفعل كان على الحقيقة، وإذا قال: أنت فعلت؟ كان قد ردّد الفعل بينه وبين غيره، ولم يكن منه في نفس الفعل تردّد، ولم يكن كلامه كلام من يوهّم أنّه لا يدري أكان الفعل أم لم يكن، بدلالة أنّك تقول ذلك، والفعل ظاهر موجود مُشاراً إليه كما رأيت في الآية.

واعلم أنّ الهمزة فيما ذكرنا تقرير بفعلٍ قد كان، وإنكار له لم كان، وتوبيخ لفاعله عليه، ولها مذهب آخر، وهو أن يكون لإنكار أن يكون الفعل قد كان من أصله، ومثاله قوله تعالى: "أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُم بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنَاثاً إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيماً" الإسراء 40.

وإذا تأملنا في قول الجرجاني رحمه الله-خلصنا إلى ما يلي:

- 1- إذا كانت الجملة الاستفهامية التقريرية مبتدئة بالفعل فإنّه يكون المقصود من الاستفهام التقرير بوقوع الفعل أو عدم وقوعه.
- 2- إذا كانت الجملة الاستفهامية التقريرية مبتدئة بالاسم، فالفاعل يكون قد وقع، وإنما الشكّ في الفاعل من هو؟
- 3- إذا كان التقرير بالفعل فإنّه لا يردّ التردّد بينه وبين غيره، وكان المقرّر موهماً أنّه جاهل بوقوع الفعل أو عدمه.

الاستفهام التقريري عند علماء الإعجاز القرآني

4- إذا كان التقرير بالإسم، فإنه يرد التردد بينه وبين غيره مع التيقن بوقوع الفعل.

5- يجتمع مع معنى التقرير معانٍ أخرى كالإنكار والتوبيخ، تستفاد من المقام وقرائن الأحوال.

ولئن ركّز الإمام الجرجاني على المعاني التي تُفهم من نظم الكلام إلا أنّ جوانب بلاغية وأسلوبية أخرى بقيت في مسيس الحاجة إلى البحث، وإظهار مكامن الجمال فيها، ومنها على وجه الخصوص علاقة أسلوب الاستفهام التقريري المباشرة بالنفس والوجدان، والتأثير الذي يسلّطه عليهما، وهذا من أبرز خصائص التقرير التي نحاول كشف اللثام عنها بحول الله وقوته في هذا البحث المتواضع.

2- أبو القاسم الزمخشري رحمه الله:

لقد سبق وأن أشرنا إلى أنّ الإمام الزمخشريّ عمد إلى نظرية الجرجانيّ في نظم القرآن فطبّق قواعدها على النصّ القرآنيّ من خلال تفسيره الكبير الكشّاف.

إنّ قوله في إبراز جماليات الاستفهام التقريريّ مبثوث في كتابه عند تفسيره للآيات التي تتضمّنه، ولم يعد أن أشار إليه دون الكشف عن أسرار البديعة، والظاهر أنّ الزمخشريّ أصابه ما أصاب الجرجانيّ من الوله بنظرية اللفظ والمعنى، والتردد في إبراز الأفضلية بينهما، وهذا ما جعله يركّز على ذكر معاني الجمل الاستفهامية التقريرية، من ذلك ما أورده في قوله تعالى: "أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ" الشرح 01، إذ يقول: استفهم على انتفاء الشرح على وجه الإنكار، فأراد إثبات الشرح وإيجابه، فكأنّه قيل: شرحنا لك صدرك، ولذلك عطف عليه: "ووضعنا" اعتباراً للمعنى⁽¹⁰⁾، وإذ يبيّن معنى التقرير في قوله تعالى: "وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِباً أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ" العنكبوت 68، فيقول: أليس: تقرير لثوائهم في جهنّم... وحقيقته أنّ الهمزة همزة الإنكار دخلت على النفي، فرجع إلى معنى التقرير، فهما وجهان، أحدهما: لا يثوون في جهنّم؟ و: ألا يستوجبون الثواء فيها؟، وقد افتروا مثل هذا الكذب على الله، وكذبوا بالحقّ هذا التكذيب؟، والثاني: ألم يصحّ عندهم أنّ في جهنّم مَثْوًى للكافرين حتّى اجترأوا مثل هذه الجرأة؟⁽¹¹⁾.

ويقول أيضاً عند قول الله سبحانه: "أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُضِلٍّ

الدكتورة: سهام مادن

أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِي انْتِقَامٍ" الزمر: 36-37. " أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ": أدخلت همزة الإنكار على كلمة النفي، فأفيد معنى إثبات الكفاية وتقريرها⁽¹²⁾.

إنّ الزمخشريّ لم يغفل جانباً مهماً في أسلوب التقرير، ألا وهي المقاصد السامية التي يحقّقها في الآيات القرآنيّة، بإبراز غاياته، ومراميه، من ذلك أنّه فرغ من تفسير آيات النسخ في سورة البقرة التي تلاها الاستفهام التقريريّ في قوله: "أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ" البقرة: 106، قال لما بيّن لهم أنّه مالك أمورهم، ومُدبّرهما على حسب مصالحهم، من نسخ الآيات وغيره، قرّره على ذلك بقوله: "ألم تعلم"، أراد أن يوصيهم بالثقة به فيما هو أصلحّ لهم ممّا يتعبّدهم به، وينزل عليهم، وأن لا يقترحوا على رسولهم ما اقترحه آباء اليهود على موسى عليه السلام من الأشياء التي كانت عاقبتها وبالاً عليهم، كقولهم "اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا" الأعراف، 138، "أَرِنَا اللَّهَ جَهَنَّمَ" النساء 153، وغير ذلك "ومن يتبدّل الكفر بالإيمان" ومن ترك الثقة بالآيات المنزلّة، وشكّ فيها، واقترح غيرها: "فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ" البقرة 108⁽¹³⁾.

ويذكر علّة ورود الاستفهام التقريريّ في سورة الضحى عند قول الله سبحانه: "أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى" الضحى 06، فيقول: عدّد عليه نعمه وأياديه، وأنّه لم يُخله منها، من أوّل تربّيه، وابتداء نشئه، ترشيحاً لما أراد به، ليقيس المترقّب من فضل الله على ما سلف منه، لئلا يتوقّع إلّا الحسنى، وزيادة الخير والكرامة، ولا يضيّق صدره، ولا يقلّ صبره⁽¹⁴⁾.

كما يوضّح الغاية الأسى من سؤال إبراهيم عليه السلام ربّه أن يُريّه كيف يحيي الموتى وذلك في الآية الستين بعد المائتين من سورة البقرة-عن طريق السؤال إذ يقول: فإن قلت: كيف قال له "أو لم تؤمن"، وقد علم أنّه أثبت الناس إيماناً؟ قلت: ليجيب بما أجاب به لما فيه من الفائدة الجليلة للسامعين، و"بلى" إيجاب لما بعد النفي معناه: بلى أمنت" ولكن ليطمئن قلبي" ليزيد سكوتاً وطمأنينة بمضامة علم الضرورة علم الاستدلال، وتظاهر الأدلّة أسكن للقلوب، وأزيد للبصيرة واليقين، ولأن علم الاستدلال يجوز معه التشكيك بخلاف العلم الضروريّ، فأراد بطمأنينة القلب العلم الذي لا مجال فيه للتشكيك⁽¹⁵⁾.

إنّ الزمخشريّ رحمه الله يرى أنّ الاستفهام التقريريّ يكون بهل-وهو ما نراه-كما يقع بالهمزة، وتكون بمعنى قد⁽¹⁶⁾. يقول في تفسير قوله تعالى: "هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا"، والمعنى: هل قاربتم ألا تقاتلوا؟ يعني: هذا الأمر كما أتوقعه،

الاستفهام التقريري عند علماء الإعجاز القرآني

أَتَكُم لَا تَقَاتِلُونَ، أراد أن يقول: عسيتم ألا تقاتلوا، بمعنى: أتوقع جبنكم عن القتال، فأدخل "هل" مستفهما في توقعه، كقوله تعالى: "هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ " الإنسان 01، معناه: التقرير (17).

ورغم محاولة الزمخشري الجادة في كشف اللثام عن معاني التقرير في القرآن إلا أنه لم يشف علة النفس الإنسانية، ولم يُرو غلّتها بعد، خاصة وأن الاستفهام التقريري له صلة مباشرة بالنفس وخلقاتها، وعواطفها، ومكانم التأثير فيها.

3- أبو السعود-رحمه الله- (ت 951هـ) (18).

كثيرا ما يشير الإمام أبو السعود-رحمه الله- إلى الاستفهام التقريري عند تعرّضه للآيات التي ورد فيها هذا النوع من الاستفهام، وذلك في تفسيره الكبير "إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم"، إلا أنه يشير إليه إشارات لطيفة، دون الغوص في معانيه، وكشف النقاب عن أسرار البلاغة والجمالية، كما ذكر بعض المقاصد التي يتوصّل إليها بتوظيف أسلوب الاستفهام التقريري منها:

* حمل المخاطب على الإقرار بالحقيقة على وجه الاضطرار: وذلك في قوله سبحانه وتعالى: "أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا أَلِلَّهِ مَعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ" النمل، 60، "أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ: والهمزة لتقريرهم أي حملهم على الإقرار بالحق على وجه الاضطرار، وأفاض على كلّ منها ما يليق به من منفعه من أحسن تلك المخلوقات وأدناها، بل بأن لا خيرية فيه بوجه من الوجوه قطعاً (19).

* حمل المخاطب على الإقرار بعظم مخلوقات الله تبارك وتعالى: كما ورد في قوله عز وجل: "هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرٍ" الفجر، 05، تحقيق وتقرير لفخامة شأن المقسم به أن وكونها أمورا جليلة، حقيقة بالإعظام، والإجلال عند أرباب العقول، وتنبيه على أن الإقسام بها أمر معتد به، خليف بأن يؤكّد به الإخبار على طريقة قوله تعالى: "وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لِّوَعْلَمُونَ عَظِيمٌ" الواقعة 76 (20).

* حمل المخاطب لى قياس الحاضر بالمتربّب: كما جاء في قوله تعالى: "أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى" الضحى، 06: تعديد لما أفاض عليه، عليه الصلاة والسلام من أول أمره إلى ذلك الوقت من فنون النعماء العظام، ليستشهد بالحاضر الموجود على المتربّب الموعود، فيطمئن قلبه، وينشرح صدره، والهمزة لإنكار النفي، وتقرير المنفي، على أبلغ وجه، كأنه قيل: قد وجدك... الخ (21).

الدكتورة: سهام مادن

*حمل المخاطب على الإقرار بعظم قدرة الله تبارك وتعالى، وكمال علمه وحكمته: وذلك في قوله تعالى "أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ" الفيل⁰¹، يبين أبو السعود أنّ الخطاب لرسول الله ρ والهمزة لتقرير رؤيته ρ بإنكار عدمها، وكيف: معلّقة لفعل الرؤية منصوبة بما بعدها، والرؤية علمية: أي ألم تعلم علماً رصيناً متاخماً للمشاهدة والعيان باستماع الأخبار المتواترة، ومعاينة الآثار الظاهرة، وتعليق الرؤية يضيف فعله عزّ وجلّ لا بنفسه، بأن يقال: ألم تر ما فعل ربك... الخ لتهويل الحادثة، والإيذان بوقوعها على كيفية هائلة، وهيئة عجيبة، دالة على عظم قدرة الله تعالى، وكمال علمه وحكمته، وعزّة بيته، وشرف رسوله ρ ، فإنّ ذلك من الإرهاصات، لما روي أنّ القصّة وقعت في السنة التي ولد فيها النبي ρ (22).

ولئن كانت إشارات الإمام أبي السعود لا يستغني عنها عالم البلاغة إلا أنّها تبقى سطحية بحاجة إلى التعمّق، والغوص في دقائق الأسلوب التقريريّ من ناحية، أضف إلى ذلك أنّ سبق إليها، كما رأينا ذلك عند الإمام الزمخشريّ من ناحية أخرى.

4- محمد الطاهر بن عاشور- رحمه الله- (23).

لقد برز الأستاذ التونسيّ الجليل في العصر الحديث من خلال سفره الكبير "تفسير التحرير والتنوير" الذي تناول فيه بلاغة القرآن، وكشف الستار عن أساليبه البلاغيّة والإعجازيّة المتنوّعة والمتداخلة والمتكاملة، وكان لأسلوب الاستفهام التقريريّ حظّاً من الدراسة والتحليل، مثال ذلك:

أ-قوله تعالى: "أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ" الزمر، 32: "والاستفهام تقريريّ، وإنّما وجّه الاستفهام إلى نفي ما المقصود التقرير به جرياً على الغالب في الاستفهام التقريريّ، وهي طريقة إرخاء العنان للمقرّر بحيث يفتح له باب الإنكار علماً من المتكلّم بأنّ المخاطب لا يسعه الإنكار، فلا يلبث أن يقرّ بالإثبات (24)، وفائدة أسلوب التقرير هنا أنّه يستدرج المخاطب، ويرخي له العنان حتّى يقرّ بالحقيقة من تلقاء نفسه، وهنا لفتة إلى أنّ للاستفهام التقريريّ علاقة محكمة بالنفس ومضمّراتها.

ب-قوله تعالى: "أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِي انْتِقَامٍ" الزمر، 37: "والاستفهام تقريريّ، لأنّ العلم بعزّة الله متقرّر في النفوس لاعتراف الكلّ بآلهيته، والإلهية تقتضي العزّة، ولأنّ العلم بأنّه منتقم متقرّر من مشاهدة آثار أخذه لبعض الأمم مثل عاد وثمود، فإذا كانوا يقرّون لله بالوصفين المذكورين، فما عليهم إلا أن يعلموا أنّه كاف عبده بعزّته، فلا يقدر أحد على إصابة عبده بسوء، وبانتقامه من الذين يبتغون لعبده

الاستفهام التقريري عند علماء الإعجاز القرآني

الأذى⁽²⁵⁾، وهذه طريقة إلزامية لا محيد عنها، إذ الإيمان بالهيته جلّ وعلا يستلزم الإيمان بعزته.

ج- قوله تعالى: "أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ" الحديد 14: "استفهام تقريريّ، استعمل كناية عن طلب اللحاق بهم، والانضمام إليهم، كما كانوا معهم في الدنيا يعلمون أعمال الإسلام مع المسلمين، والمعية أطلقت على المشاركة في أعمال الإسلام، من نطق بكلمة الإسلام، وإقامة عبادات الإسلام، توهّموا أنّ المعاملة في الآخرة تجري كما تجري المعاملة في الدنيا.

صور الأعمال:

لقد حظي أسلوب الاستفهام التقريري باهتمام كبير عند علماء البلاغة والإعجاز القرآني، وما ذكرناه كان من باب التمثيل لا الحصر، لأنّه يمثّل نوعاً من أنواع الإعجاز القرآني.

الدكتورة: سهام مادن

الهوامش:

- 1- محمد حسن الشريف، معجم حروف المعاني في القرآن الكريم، مفهوم شامل مع تحديد الأدوات، ط1، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، 1417هـ-1996م، ج1، ص75-86
- 2- أبو الحسن أحمد بن فارس، معجم مقاييس اللغة، تحقيق عبد السلام هارون ط1، دار الجيل، بيروت، لبنان، 1411هـ-1991م، ج5، ص7
- 3- الزركشي بدر الدين، البرهان في علوم القرآن، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الجيل، بيروت، لبنان، 1408هـ-1988م، ج2، ص331
- 4- الزركشي، البرهان في علوم القرآن، ج2، ص333
- 5- فضل حسن عباس، البلاغة فنونها وأفنانها، ط7، دار الفرقان للنشر والتوزيع عمان، الأردن، 1421-2000، ص197-199
- 6- ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ط1، دار ابن حزم، 1423-2002، ج4، ص3119، السيوطي، الدر المنثور في التفسير بالمأثور ط1، دار العلمية، بيروت، لبنان، 1411-1990، ج6، ص622
- 7- ابن هشام الأنصاري، مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، تحقيق حنا الفاخوري، ط1 دار الجيل، بيروت، لبنان، 1411هـ-1991م، ج1، ص29
- 8- السيوطي جلال الدين، معترك الأقران في إعجاز القرآن، تحقيق أحمد شمس الدين، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1408هـ-1988م، ج1، ص329
- 9- فضل حسن عباس، البلاغة وفنونها وأفنانها، ص199
- 10- سيد قطب، في ظلال القرآن، ط25، دار الشروق، القاهرة، مصر، 1418-1996، مج3، ج11، ص1752-1755
- 11- الجرجاني عبد القاهر، دلائل الإعجاز في علم المعاني، صحح أصله: محمد عبده، ومحمد محمود التركي الشنقيطي، بتعليق الشيخ: محمد رشيد رضا، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، (د.ت)، ص87-89

الإستفهام التقريبيّ عند علماء الإعجاز القرآني

- 12- أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشريّ، عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، صحّحه: عبد الرزاق المهدي، ط1، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، 1424-2003، ج2، ص.1363
- 13- المصدر السابق، ج2، ص.909
- 14- المصدر السابق، ج2، ص.1054
- 15- المصدر السابق، ج1، ص.80
- 16- المصدر السابق، ج2، ص.1362
- 17- المصدر السابق، ج1، ص.140
- 18- المصدر السابق، ج2، ص.1311
- 19- المصدر السابق، ج1، ص.133
- 20- هو محمد بن محمد بن مصطفى العمادي، المولى أبو السعود، مفسّر شاعر من علماء الترك المستعربين، كان حاضر الذهن، سريع البديهة، توفي سنة 982هـ حسب ما أورده الزركلي، انظر: الزركلي، الأعلام، ج4، ص.59
- 21- الزركلي خير الدّين، الأعلام قاموس تراجم لأشهر الرّجال والنّساء من العرب والمستعربين والمستشرقين، ط12، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، فبراير، 1997م، ج4، ص.59
- 22- أبو السعود محمد بن محمد العمادي، إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم، ط4، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، 1414-1994، ج6، ص.293
- 23- المصدر السابق، ج9، ص.153
- 24- المصدر السابق، ج9، ص.170
- 25- المصدر السابق، ج9، ص.200
- 26- محمد الطاهر بن عاشور، رئيس المفتين المالكيين بتونس، وشيخ جامع الزيتونة وفروعه بتونس، مولده ووفاته ودراسته بها، له مؤلّفات عدة منها: تفسير التحرير

الدكتورة: سهام مادن

والتنوير، مقاصد الشريعة الإسلامية، توفي سنة 1393هـ، 1973م، انظر: الزركلي،
الأعلام، ج6، ص.173

27-محمد الطاهر بن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، الدار التونسية للنشر، تونس،
(د.ت)، ج24، ص6-7

28-ابن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، ج24، ص15.